

بسم الله الرحمن الرحيم

الدرس: 21

الأستاذ: سماحة العلامة الشيخ معين دقيق

الدرس: تفسير القرآن الكريم

المبحث: سورة الإنسان

التاريخ: 11\01\2023 م

كتبه: عبدالله ضيف الستري

ذكرت بعض الوجوه في توجيه نصب في قوله: ﴿عَيْنًا﴾ ولم يكن ذلك على نحو الحصر، وتوجد وجوه أكثر مما ذكرته.

هناك أمر لفت نظر علماء التفسير، وهو أنه في الآية السابقة قال تبارك وتعالى: ﴿يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ﴾ عدى الشرب بحرف جر ﴿مِنْ﴾ وفي هذه الآية ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا﴾ فلم يقل منها.

هذا التفاوت في التعدية لفت نظر علماء التفسير. نعم في العرف للوهلة الأولى قد يقال: ما دام الكلام عن الشرب من العين التي في العادة لا يستطيع الشارب أن يستوعبها بأجمعها، الأولى أن نقول يشرب منها، بخلاف الكأس، فالكأس يمكن أن يشربها بتمامها، خصوصاً إذا أريد من الكأس الطرف لا المظروف، فتكون وسيلة للشرب، فيمكن أن نعيدها بالباء. بينما التنزيل عكس الأمر، ففي الكأس عداها بـ ﴿مِنْ﴾ وفي العين عداها بالباء.

فهذه الظاهرة لفتت علماء التفسير للبحث عن حل لها، كما في البحث السابق أيضاً تعددت الوجوه، ففعل أسهل الأمور التي يمكن أن يفر بها الإنسان أن نلتزم بأن الباء زائدة، عيناً يشربها.

خصوصاً إذا التزمنا أيضاً في الآية السابقة أن ﴿مِنْ﴾ زائدة، يكون الأمر في غاية السهولة، فلا يحصل تفاوت.

لكن هل ينقطع السؤال بهذا الالتزام؟ لا، فنسأل لماذا تريد أن تأتي بحرف جر زائد؟ لماذا في الكأس أتيت بـ ﴿مِنْ﴾ وفي العين أتيت بالباء؟ فلا ينقطع السؤال بهذا الالتزام، ولا يحل لنا هذا الأمر المشكلة.

الفخر الرازي من جملة الأشخاص الذين تناولوا هذا البحث بصراحة، وأجاب عنه: أن هذا التفريق في التعدية نشأ من أن الكأس¹ هو مبدأ شربهم، فناسب أن نستعمل معه ﴿من﴾؛ لأن ﴿من﴾ تدل على الابتداء. وأما العين فإنهم يمزجون بها شرابهم، الآية: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ﴾ [مبدأ شربهم] من كأسٍ كان مزاجها كافوراً ﴿الخليط الذي امتزج به الخمر هو الكافور، الذي اتخذ من تلك العين. فالعين في الآية الشريفة هي ما يمزج به الشراب. كما يقال في العرف: شربت الماء بالعسل. الباء في الجملة تدل على الامتزاج، أي شربته ممتزجاً بالعسل.

ففيما نحن فيه، هؤلاء يشربون من خمر امتزج بهذه العين، لكن هذا لوحده لا يكفي لحل المشكلة، وقياس ما نحن فيه على قوله: شربت الماء بالعسل. الذي يرجع إلى التقدير شربته ملتوتاً بالعسل أو ممزوجاً بالعسل، الأمر فيه ليس كذلك.

خصوصاً مع هذا الفاصل الطويل، ووجود شرب للعين. فإذا أردت أن تقيس لابد أن تقول: شربت من الماء وشربت العسل، لا أن تقول: شربت الماء بالعسل؛ لأنه في الآيتين مادة الشرب قد تكررت فيهما، فقياسها على شربت الماء بالعسل قياس مع الفارق.

باعتقادي أن الصحيح في توجيه الآية الشريفة أن الشرب هنا تضمن معنى الارتواء، أصل الشرب وغايته أن يرتوي الإنسان، فكثيراً ما في كلمات العرب يتضمن الشرب معنى الارتواء. خصوصاً وهذه الآيات في معرض ذكر ما ينعم الله تبارك وتعالى به على من سلك سبيل الشاكرين في سياق إبراز هذه النعم، ففي نعم الدنيا لا يرتوي الإنسان، ولذا تراه يلهث. ولذا شبهت الدنيا في الروايات بماء البحر، وماء البحر المالح لا يرتوي منه الإنسان.

فيريد الباري تبارك وتعالى أنه يقول: هذا الشراب المعد لهذا الصنف من الناس يصلهم إلى مرحلة الارتواء، فعندما تضمن الشرب معنى الارتواء صح أن يتعدى بالباء، ارتويت بالماء. خصوصاً هذه العين التي سوف يصفها بأنهم بيدهم أن يفجرونها تفجيراً.

¹ الكأس المراد به الخمر.

إذا كانت الشرب في هذه الآية الثانية ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ﴾ قد تضمن معنى الارتواء، فيكون على وفق القاعدة، تعدى بالباء.

ومن هنا نفهم المضمون النهائي للآيتين، الباري تبارك وتعالى في هاتين الآيتين اللتين استعرضهما في سياق الحديث عن جزاء ذلك الصنف من الإنسان وهو الشاكر، بين أنه من النعم التي أعطيت لهم أنهم يشربون من كأس ليست ككؤوس الدنيا، بل كأس خاصة، من كأس كان مزاجها كان خليطها كافورا، وهذا الكافور هو مأخوذ أو هو اسم -على الخلاف المتقدم- لعين، هذه العين يرتوي بها عباد الله تبارك وتعالى، ولا تنقطع؛ لأنهم بمشيتهم يستطيعون أن يفجروها تفجيراً.

لا بمعنى أنهم يحفرون السدود والخنادق، ويوصلون الماء إلى قصورهم؛ لأن الله تبارك وتعالى يتكلم عن أهل النعيم بقوله: ﴿مَا يَشَاؤُنَ فِيهَا﴾² فتكفي الإرادة. فهذا الماء الذي تشكل منه ذلك الخليط الذي يشرب منه الأبرار مأخوذ من عين دائمة تروي عباد الله سبحانه وتعالى، ويفجرونها متى ما شاءوا وكيفما أرادوا، فإذا أرادوا يصلون هذه العين إلى حدائقهم وبساتينهم، وإذا أرادوا يصرفونها إلى قصورهم وما شابه ذلك.

فالآية واضحة المعنى في سياق إبراز هذه النعمة الإلهية.

يبقى الكلام في أن هذه الآية الشريفة، هل ترتبط بفكرة تجسم الأعمال أم لا³؟

مثل العلامة الطباطبائي (رحمته الله) يستقرب نظر الآية إلى تجسم الأعمال من خلال التعبير بالفعل الحاضر، فلم يقل سوف يشربون أو سيشربون، بل قال يشربون، أي في الحال، فبعملك الصالح الآن تشرب.

لكن هذا لوحده لا يكفي لإثبات هذا المطلب؛ لأن التعبيرات القرآنية بالفعل المضارع الذي يدل على الحال متكررة ومنتشرة في آيات القرآن الكريم لغرض تصوير المسألة بمرأى ومسمع منك؛ لاستحضارها، وليس إلا بالضرورة أن تدل على تجسم الأعمال، أي لو لم يكن لدينا أدلة على تجسم الأعمال لا نستطيع أن نجعل هذه الآية المباركة هي الدليل بمجرد أن عبر الفعل المضارع.

² ق: 35

³ وهذا باحث من البحوث القرآنية المهمة.

ففي القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿فَصَعَقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾⁴ فعندما ينفخ في الصور عبر بالفعل الماضي، ومع أنه بعد لم يصعق أحد؛ إذ عبر بالفعل الماضي للدلالة على تحقق وقوع الأمر. وكذلك يعبر بالفعل المضارع لاستحضار الصورة حتى لو كانت في الزمن الماضي، قوله تعالى: ﴿فَفَرِقَافًا كَذَبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾⁵ بنو إسرائيل فريقاً كذبتهم وفريقاً قتلتم، لا أنكم تقتلون، لكن لاستحضار هذه الصورة المقترزة للنفس -صورة القتل- استعمال الفعل المضارع.

فهذا لوحده لا يكون كافياً لإثبات تجسم أعمال، وإن كنا نؤمن بذلك، فالإيمان بمطلب وفكرة شيء واستفادة هذه الفكرة من هذه الآية شيء آخر.

نعم بناء على نظرية تجسم الأعمال الثابتة بأدلتها لا مانع من الالتزام بأن هذا الشرب إنما هو نتيجة قهرية لما يقوم به الإنسان في هذه الدنيا، كما في الآية الخامسة والعشرين من سورة البقرة: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ﴾⁶ أي في الجنة عندما يأتينا رزق، نقول هذا الذي رزقنا من قبل، أي رزقناه بأن من الله سبحانه وتعالى علينا بالهداية، فكنا من أهل الإيمان والعمل الصالح، فهذا أمر ممكن.

لكن أن تكون هذه الآية الشريفة هي الدليل على هذا المطلب الأمر ليس كذلك.

⁴ الزمر: 68

⁵ البقرة: 87

⁶ البقرة: 25